باية حضارة نتثقف

الحضارة الشرقية القديمة ام الغربية الحديثة ؟

— ٢ —

فاما عدم استطاعة الحضارة الاسلامية القديمة مماشاة العصر الحاضر فيرجع لسببين : الاول اجتماعي والثاني ادبي . اما السبب الاجتماعي فهو ان الحضارة الغربية الراهنة قد نفخت في العالم روح النظام والاعتراف بالقانون كأنه اداة تمثل ارادة الهيأة الاجتماعية . لا كأنه شريعة سنها حاكم فرد مستبد سواء كان ذا سلطة دينية او دنيوية . فالرجل الغربي انما يخضع للقانون لا خوفاً من سلطته ولافرقاً من سطوته . وانما اعتباراً بأنه ممثل لرغبات القوم الذين يساكنهم ويعيش معهم مطابق لتقاليدهم واغراضهم . وذلك مالم يعهده الشرق في اسنى حضاراته رونقاً واسماها رقياً .

وهناك ظاهرة اجتماعية قد اصطبغت بها الحضارة الغربية واذاعتها في اطراف المعمورة وهي الحرية . . الحرية بجميع انواعها واوسع معانيها بدرجة لم تعهدها الحضارة الشرقية المنقرضة .

وقد نبغ (الكارتوغرافيون) الواقفون على الاكتشافات اول مرة في ايطالية ثم في فرانسة والمانية . ثم كان النجاح حليف هولاندة .

اما اصلاح وتصحيح خرائط (بطليموس) بصورة جدية فقد جرى سنة ١٥٧٨ على يد (مركاتور) و (جرهار كريمر) . وفي الوقت عينه اخذ (اورتليوس) ينشر مجموعة كبيرة من الخرائط الحديثة ، في عالم المطبوعات.

— للبحث صلة —

وقد قال في ذلك الاستاذ سامي الجريديني مايأتي :

« أجل الطرف في تاريخ الشرق واقرأ بانعام فلسفة حضاراته تجدها بعيدة عن الحرية التي فسرناها لك بعداً شاسعاً . فكأن الروح الشرقية موحدة ليس غير والتوحيد يفرض اجتماع كل الصفات في شيء واحد . ومنها السلطة المدنية ومتى تم لكائن واحد ان يجمع السلطان في شخصه سار حتماً الى الاستبداد فالى انتزاع الحرية من الجمهور »

وقد أشار الاستاذ الآنف الذكر الى ظاهرة اجتماعية أخرى تعد ايضاً من اركان الحضارة الغربية تمشت عليها في تكوين القوميات والامم . وهي قاعدة التطور السياسي والاجتماعي . وقد قال عن هذه الظاهرة مايلي : —

« فالمدنية الغربية لم تتنبذ لها مكاناً قصياً عن بقية المدنيات . بل أخذت عن سواها وامتصت وتمثلت ما أخذته وهي لا تزال تتطور شأن كل مخلوق حي . والشعوب المتحضرة بالحضارة الغربية ليست الا نسلاً خليطاً قوام نسبه الاندماج بسواه والتطور مع هذا السوي . وانما يجدر بنا ان نتفهم هذا الخلق تفهماً حقاً فرحابة الصدر في الشعوب وحب الاختلاط وازالة مايمنع الاندماج خير مايتاح لشعب يرغب في حياة خليقة بهذا التمدن »

« هذه الروح خلقت الامة الانكليزية وخلقت امة اعظم هي الامة الاميركية . بل هي ام القوميات الاوربية كلها »

« ولكننا لم نعبأ بها في الشرق . فالترك مثلاً حكموا دهوراً على غير هذه القاعدة وكم يكون ملكهم عظيماً لو ادمجوا الارمن او العرب او الروم واندمجوا بهم اذن لكانت هناك قومية تركية . ولكنهم كانوا الى العصبية اميل . الدينية ساعة . والجنسية ساعة أخرى » (١)

---

(١) راجع مجلة الهلال الجزء الـ ٦ والجزء الـ ٧ من السنة الـ ٣٤

هـذا مايختص بالظواهر الاجتماعية التى صبغت المدنية الغربية الراهنة العصر الحاضر بصبغتها. والتى نرى عند التحقيق ان حضارتنا الاسلامية القديمة بعيدة عنها كل البعد. اذ ليس فى تلك الحضارة البائدة تقديس للنظام باعتبار انه ممثل لارادة الهيئة الاجتماعية كما نرى الآن. وليس فيها ميلاً ظاهراً للحرية الا فى فترات من الزمن قصيرة يكاد يخفى نورها بين ظلمات الاستبداد المدنى والديني الحالكة . وليس فيها نزوع الى التطور السياسي والاجتماعى وحب التبدل والتغير من الحالة المناسبة الى الحالة التي هى أنسب والتدرج من الرديء الى الصالح . بل نرى الجمود والبقاء على القديم المضر في اجلى مظاهره وهذا الجمود هو من أكبر المساعدين على انقراض تلك الحضارة وابادتها .

فاية طاقة او قوة لحضارة لا تقدران تجاري العصر الحاضر فى أهم ظواهره وقواعده الاجتماعية وان حضارة لا تنظر الى الشريعة او القانون الا بمقدار نظرها الى القوة التي تؤيدها ، ولا تأنف من الاستبداد وتقييد الحرية حرصاً على رضاء حاكم مستبد ، وترى الجمود على المضر افضل من التطور الى النافع لحضارة زائفة حجية بالنبذ والاقصاء مهما كان رقيها المادي والروحي عظيما .

واذاً فليس من الانصاف ان يغمط الاستاذ العقاد المدنية الغربية حقها بقوله: « انني لا أقيس مدنية الغرب بعدد مخترعاتها ولكن بالملكات والمواهب التي انتجتها. فهل بين هذه الملكات ماهو اعظم واجل وارفع من الملكات التي ابدعت صناعات المدنيات الغابرة وعلومها وفنونها ؟ ان كان ثمة فرق فهو يسير جداً » . أجل ليس في هذا القول شيء من الانصاف . لاننا نعلم ان الملكات التى ابدعت صناعات المدنيات الشرقية وعلومها وفنونها مهما عظم جلالها وسمت رفعتها فانها قاصرة عن مجارات الحضارة الغربية متى كانت هذه الحضارة تدين بتقديس النظام وتوسيع نطاق الحرية والنزوع الى التطور

كما ان ثمار تلك الملكات ونتائجها مهما كانت رائقة خلابة لا تجدي فتيلاً اذا كانت فى بيئة جمود واستبداد . بل لا تلبث ان تتلاشى وتنقرض وتصبح أثراً من بعد عين .

***

والآن بعد ان فرغنا من شرح السبب الاجتماعي الذي يعوق الحضارة الاسلامية القديمة عن مماشاة العصر الحاضر فلنلتفت الى السبب الادبي الذي يعوقها ايضاً ويضعف قوتها عن مزاحمة المدنية الغربية . وهـذا يرجع الى قسمين .

الاول — الخلاف الحاصل بين الحضارة الاسلامية و بين الحضارة الغربية في فهم الادب ومعرفة الغاية منه فاذا تفحصنا هـذا الخلاف نجد ان الحضارة الغربية محقة فى اختلاف وجهة نظرها للادب عن وجهة الحضارة الاسلامية اليه .

تصفح أهم كتب الادب العربية القديمة من مقامات بديع الزمان الهمدانى الى رسائله الى مقامات الحريري وشرحها الى مجمع الامثال للميداني الى العقد الفريد لابن عبد ربه وغيرها من الكتب الادبية المشهورة فما هي الغاية التي يتجه اليها الادب فى هذه الكتب ؟ ان الغاية التي يتجه اليها بالنظر الى هذه المؤلفات الاعتناء بتفخيم الاسلوب واجادة النظم والنثر (اجادة لفظية) وجمع الالفاظ الغريبة المسجفة التي لم تألفها الاسماع فى خلال السطور. فكأن ادباء المسلمين فى حضارتهم البائدة يقدرون الاديب بقدر ما يحشي به كتاباته من الالفاظ المنتقاة من بطون المعاجم والقواميس . وبقدرما يوفق اليه من الاجادة بالتصرف بهذه الالفاظ ومعرفة ترصيفها وترصيع العبارات بها — اما افادة القاريء والعكوف على تزويده بما ينفعه فى حياته فليست هي

الغاية المتوخاة من الادب العربي في الحضارة الاسلامية .

واذاً فالادب العربي لم يبتغ منه الادباء منفعة القارئين واصلاح احوالهم الروحية والمعاشية . انما هو ادب قوامه اجادة المعرفة بفن التسجيع والترصيع وعماده التنقيب على ما لم يعرف معناه من الالفاظ الا بمراجعة القواميس . واحشاء العبارات بها .

على ان بين الغاية الادبية عند المسلمين قديماً وبينها عن الغربيين حديثاً بوناً بعيداً . وانما الغاية الادبية عند الغربيين الكشف عند احوال النفس واصلاحها ومعرفة مايخالجها من العوامل والمؤثرات والانفعالات النفسية وانتقاد العادات الشائنة والسير الباطلة . ولم يجعلوا الغاية من ادبهم انتقاء الالفاظ وزخرفة الاساليب .

الادب عند الغربيين ما تغلغل فى اعماق النفس وروي غليل الارواح المتعطشة وسد حاجاتها وهداها الى سبيل الحقائق الثابتة وكشف لها عن حجاب العوامل التي تؤثر فيها . ومبلغ ذلك التأثير .هذا جل ما يبتغيه الغربيون من الادب .

ثم ان للادب الغربي ميزة اخرى على الادب العربي الاسلامي وهى هذا الجهد في اخراج الروايات التمثيلية وغير التمثيلية للانتقاد والاصلاح واظهار الحقائق للجمهور . مما لم ينتبه اليه المسلمون وان كتبوا كثيراً من القصص التي لم يكونوا يبتغون بها غير الفكاهة او اثارة الحماسة فى صدور الجند .

فاين للحضارة التي ليس لها غاية في ممارسة الادب الا جعل مرسحاً للبهرجة اللفظية من الثبات امام الحضارة التى ترى في ادبها ميداناً تظهر فيه حقائق الحياة وتتجلى به العوامل النفسية وما يستتر تحتها من التأثرات والانفعالات ؟

واما وراثة الحضارة الغربية الحديثة للمدنيات السابقة لها فما لا ينكره مؤرخ ولا يجحده علماء اوربا انفسهم . فقد رأيت فيما نقلناه آنفاً من كلام الفيلسوف الدكتور غوستاف لوبون اعترافاً صريحاً باقتباس الاوربيين لعلم الكيمياء من العرب وهو قوله : « وعند ما يقول البعض ان مخترع الكيمياء هو لافوازيه (Lavoisier) ينسون ان العرب منذ نحو الف سنه كان لهم معامل خرجت منها اكتشافات لولاها لما توصل لافوازيه الى اكتشاف» وقس على علم الكيمياء سائر العلوم والمعارف التي يسر اختلاط الغربيين بالشرقيين واحتكاكهم الطويل بهم فى غضون الحروب الصليبية اقتباسها مثل العلوم الرياضية والطبية . كما انهم اخذوا من الشرقيين كثيراً من مبتكراتهم وصنائعهم مثل صناعة الحرير وطريقة استخدام الريح فى تحريك الطواحين الهوائية وصناعة الورق وغيرها . وان الالفاظ العربية العلمية في فن الصيدلة والرياضيات وغيرهما التى اقتبسها الغربيون من المسلمين وظلت على ما هى عليه فى اللسان العربي تبرهن على مقدار ما نقله الغربيون من طرائف الفنون والعلوم والصنائع التي انتجتها الحضارة الاسلامية البائدة.

بل ان الميل الشديد الذي اصاب الغربيين الى الاطلاع على منتوجات الحضارة الاغريقية والرومانية لم يتولد فيهم الا بعد ان اطلعوا على المؤلفات الاغريقية عن سبيل العرب لا عن سبيل الاغريقيين رأساً .

ورسخ هذا الميل عند ما استولى العثمانيون على القسطنطنية سنة ١٤٥٣م وانقرضت باستيلائهم عليها الدولة الرومانية الشرقية لان العلماء الذين تبحروا بالعلوم والفنون الاغريقية كانوا قد شعروا قبل سقوط القسطنطنية فى ايدي الاتراك بان عاصمتهم لا تقوى زمنا طويلاً على الوقوف في وجه الاقوام الذين يوالون حملاتهم للاستيلاء عليها واحسوا بان الانقراض سيكون امراً محتماً